ابـن طوق وكتابه (التعليق)

الشيخ د. جعفر المهاجر

لست أذكر الآن أين قرأت لمؤرخ لا بـد أن يكون عظيماً ، كلاماً قال فيه ما مؤدّاه ، إن امـرءاً يكتب تاريخ قريته ، لهو أكثر نفعاً من مؤرخ يكتب لنا تاريخ العالَم . فكيف بمـن يكتب تاريخاً حياً لأم مدائن الدنيا " دمشق " .

إن المنظور الذي انطلق منه صاحب هـذا الكلام هـو ، إن فن التأريخ هو عمليّة عموديّة ، وظيفتها أن تنفـذ إلى أعماق النشاط البشـري بكافة مظاهره وأشكاله ، فتصفه وتنظُمه في سياق . ثـم يأتـــي عالِم التاريخ من بعده فيُركّبه ، كيما تأتي الكتابة على صورة الحقيقة .

في مقابل هـذا المنظور الإنساني منظور آخَـر يرى إلى التأريخ بوصفه عمليّة أُفُقيّة ، ذلك هو التاريخ السُّلطوي . وهذا النمط من التاريخ لا يهتم على الإطلاق بأي شكل من أشكال نشـاط الناس ، إلا حيث يصادف أن يتقاطع هذا مع شـأن من شـؤون أهل السلطة . إن همّه محصور في تقديم السلطة بوصفها مالكة حصراً للتاريخ ، وبالصورة التي تروق لها وترضيها .

مذكـرات شهاب الدين أحمد بن محمد بن طوق الشـافعي (٨٣٤ ـ ٩١٥ هـ / ١٤٣٠ ـ ١٥٠٩ م) هي أنموذج سـاطع ونقي للتأريخ ذي النزعة الإنسـانيّة ، بل لعلّه الأنموذج الوحيد فيما خلّفه لنا السلف ، بالنظر لبعض مواصفاته الخاصة ، التي سـننوه بها فيما يلي .

١ ـ كاتـب المذكرات

شـهاب الدين ، أحمد بن محمد بن أحمد الدمشـقي الشـافعي ، المعـروف بابن طوق ، وُلـد في ربيع الأول ٨٣٤ هـ / ١٤٣٠ م وتوفي يوم الأحد ثالث أو رابع رمضان ٩١٥ هـ / ١٥٠٩م . ذكر ذلك الغزّي في الترجمة الموجزة التي علّقها له في (الكواكب السـائرة : ١ / ١٢٦) ، حيـث ترجم له بثلاثة أسطر ، واصفاً إياه بـ " الشيخ الإمام العالم الصالح المحدّث " . وترجمة الغـزّي هذه نقلها ، فيما يبدو ، ابن العماد الحنبلي في (شـذرات الذهب : ٨ / ٦٨) ، لم يغادر منها سـوى وصف المترجم له بـ " الصالح " . ونخال أن تفسير هـذه الملاحظة غير بعيد عـمّـا بين الرجلين من اختلاف في المذهـب .

بالإضافة إلى ما قـد عرفناه عن ابن طوق ممن ترجم له ، فإن مذكراته تزودنا بمعلومات جمّة عنه . ونخلُص من تضاعيف ما يتحدّث به هوعن نفسـه ، إلى أنه كان فقيهاً شافعياً غير ذي شأن ، على علاقة متينة وشـبه يوميّة بتقي الدين أبو بكر ابن قاضي عجلون (٨٤١ ـ ٩٢٨ هـ / ١٤٣٣ ـ ١٥٢١ م) أعلى فقهاء الشافعية شـأناً في " دمشق " في زمانه . ومع ذلك فإنه لم يُذكـر في عـداد تلاميذه الكثُـر الذين ترجم لهم الغـزّي في (الكواكـب السائرة) . وفي هـذا دليل عـلى أنه لم يكن معدوداً من جملة الفقهاء الرسـميين . وما ذاك ، فيما نأخذه من مذكراته ، إلا لأنه كان فلاحاً على هامش الفقهاء ، الذين كانوا بدورهـم على هامش السلطة . كانت أسرته قد تحوّلت من موطنها الأصلي في قرية " جـرود " ، في " القلمون " غرب " دمشـق " ، هي نفسـها المعروفـة اليوم بـ " جيرود " التي ظـلّ يدعـوها " بـلادي " ، كما ورد غير مـرّة في مذكراتـه ، ونزلـــت " دمشق " . والظاهـر أن أمه كانت دمشـقيّة ، فخاله كان من سـكنة " الصالحيّة " ، في حين أن جدّه لأبيه كان مقيماً في " جرود " . أما هـو فكـان بيته بجـوا ر " مسجد القصـب " ،

المعروف أيضاً بـ " جامع منجك " . ويُعرف اليوم بـ" مسجد الأقصاب " . إلى جنب حمّام كان يُعرف بـ " حمّام برهان الدين " .

في " دمشق " ، فيما يبدو ، حصل ابن طوق على شئ من العلم ، بحيث تأهّل لمهنة الشهادة . وكان الشاهد جزءاً من النظام القضائي المعمول به في زمانه . وهو يَشبه إلى حد بعيد مُسجّل العقود أو الكاتب بالعدل اليوم . لكن كان على الشاهد أن يُثبت ما سجّله أمام أحد القضاة لكي يكتسب الصفة الإجرائيّة النهائيّة . وقد أثبت في مذكراته نصوصاً أمينة لعقود ممّا كان يسجّله . وكان من جملة عمله شاهداً تنظيم عقود صوريّة لتغطية عمليات إقراض بالربا الفاحش . بل أنه هو كان يُقرض بالربا بحيلة . كما كان يتعاطى ما يُشبه عمل الخبير الزراعي ومسح الأراضي . وتلك خبرة قد اكتسبها ، ولا ريب ، من منبته الفلاّحي . كما كان يستأجر أرضاً من مالكها ويزرعها لحسابه . وقليلاً ما كان يُكلّف بنساخة الكتب . وما أدري كيف ذلك بالنظر إلى ما أعرفه وعانيت منه من رداءة خطه . كما كان له إلى جنب داره بستان صغير ، يزرع فيه الرمان والقنبيط واللوز والسفرجل والورد ، ويُربّي فيه الدجاج بأعداد كبيرة ، ويبيع من كل ذلك للقضاة وكبار الفقهاء ، مستفيداً من صلاته بهم ، أو ساعياً إلى تعزيز تلك الصلات .

لكنه ، مع كل هذا السعي وتعدّد مصادر الرزق ، كان يشكو من فقر مُقيم . فهو يوماً " في شدّة عظيمة من ضيق ذات اليد " (١٧٠ آ) وآخر " في حصر عظيم من ضيق اليد وتراكم أصحاب الديون " (١٥٤ ب) . واضطر مرّة لأن يكتفي من القوت لمدّة أربعين يوماً بما ينتجه بستانه من القنبيط (١٣٢ ب) بل إنه في أيام ٢٠و ٢١ و ٢٢ شعبان ٩٠٢ هـ لم يجد ما يتبلّغ به فسجّل في مذكراته " لم آكُل اليوم شيئاً . وكانت اليد ضيّقة جداً . ويُوسّع الله " .

بيد أن الفقر والعوز لم يُزعزعا ابن القرية ، الذي ظلّ السيّد في أعماق ابن طوق . بل ظلّ ذلك الإنسان الطيّب ، المُتمسّك بالأخلاق الشعبيّة ، الآتية من التعاليم الدينيّة . ومن ذلك أنه رفض العمل للسُّلطة متكلّماً على الأوقاف ، أي مُمثّلاً لها في نظر تلك الأوقاف . خشية أ ن يُدخله ذلك العمل في تلك الدائرة المُهلكة ، من وجهة نظره ، في العمل للظالمين (٣١٨ ب) . كما غضب أشدّ الغضب وندّد بابنه الأكبر، حين نُمي إليه أنه في سبيله للحصول على وظيفة صغيرة في دار النيابة . وبالفعل أفلح في صدّه (٢٢٠ آ) . وكان مرّة في زيارة جاره الأمير قرقماس أمير آخور ، فحضر السّماط واضطر أن يَشارك الطاعمين . فكتب ذلك في مذكراته ، ثم أتبعه بعبارات مؤثرة يستغفر فيها ربّه ممّا جنته يداه لأنه أكل طعاماً حراماً (٣٤٣ ب) .

كان الرجل مُجرّد فقيه صغير ، أنموذجاً صغيراً لمثقفي ذلك الزمان . يحتلّ شريحة متواضعة جداً من ذلك الهامش الضيّق الذي تركه التصنيف الاجتماعي الحادّ ، المُحتلّ من قِبل الساسة ـ العسكر ، وعلى هامشهم فقهاء المذاهب . وكان هو على هامش الفقهاء . إذن ، فمن المُحقُّق أنه لم يكن إماماً ، وإلا لما رأيناه على هامش الهامش . كما أنه لم يكن عالماً . وإطلاق هذين الوصفين عليه من الغزّي ، وتابعه عليه الحنبلي ، هو من السخاء المجاني ، الذي تحفل به كتب التراجم والطبقات . خاصة حيث لا يُثير الوصف جدلاً ، لأن الشخصيّة نفسها أدنى من أن تكون موضع جدل .

الخلاصة ، كان ابن طوق أنموذجاً طريفاً للشخصيّة السيئة الاندماج . يستقرّ على منتصف السُّلّم ، يتجاذبه قطبان ، يتمثّل أولهما في منبته الفلاحي وما أودعه فيه من أخلاق صارمة ، والثاني في طموحه إلى اختراق سقف الطبقة التي جاء منها ، والالتحاق بأحد قّطبي النفوذ . وذلك طموح مشروع وغير نادر . لكن شخصيّة ابن طوق ، وبالخصوص تركيبته الأخلاقيّة الصارمة ، كانت أبعد ما يكون عن صعود السُّلّم إلى منتهاه .

٢ ـ المُذكّرات

ما وصلنا من مذكّرات ابن طوق يغطّي ما بين السنتين ٨٨٥ و ٩٠٨ هـ / ١٤٨٠ ــ ١٥٠٢ م ، أي زهاء الأربع وعشرين سنة ملأها كاتبها بمادة بالغة التنوّع ، استقاها بدأ ب مدهش من عمله ، وقد عرفناه ، وقد سجّل نصوصاً تبدو أمينة لمجموعة جيّدة من العقود التي صاغها بلغته . وهذه تشكّل بنفسها ثروة من المعلومات التي تتناول نظام العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في زمانه . كما يمكن أن تكون موضوعاً للدراسة بوصفها نماذج لغويّة نادرة . ومن مشاهداته الشخصية ، على كل ما يخطر بالبال من صنوف نشاطات الناس . بحيث تقدّم لنا لوحة بانورامية عريضة لا مثيل لها لسعي الناس في مختلف ميادين الحياة . بالإضافة إلى ما وصل إلى سمعه من أخبار . وجدير بالذكر أنه في مصدره الأخير حرص دائماً على ذكر مصدر الخبر ، وكأنه يريد توثيقه . وهو في هذا متأثّر ، ولا ريب ، بنهج المحدّثين . مع حرص خاص على تتبّع عثرات السلطة السياسية ، وتسجيل ضروب الاعتراض عليها من جانب الناس ، حين يصل ضيقهم بمظالمها إلى الحدّ الذي لا يطيقون احتماله ، أو عندما يجدون أن الوضع ا لسياسي ملائم للشكوى والتنديد العلنيين .إذ ذاك نراه يستنزل اللعنات على أولئك الظالمين دونما خشية ، وهو في أقصى حالات الغضب . وهذا أمر نادر جداً في الكتابة التاريخية التقليديّة . كما أن السلطة الدينية ، المتمثلة آنذاك في القضاء بمذاهبه الأربعة ، لم تنجُ من نقده الحاد لسلوك بعض القضاة المُرتشين ، أو الذين يكيّفون أحكامهم طبقاً لمصالحهم . وحتى شيخه الذي ظلّ مخلصاً له طيلة حياته ، أعني تقي الدين ا بن قاضي عجلون ، نا ل نصيبه من النقد اللاذع ، إذا صدر منه ما هو في نظر ابن طوق مما لا يتناسب مع ما هو متوقّع من عالم الدين النقي . كل هذا مع إشارة ضرورية إلى عنايته التامة بتسجيل أحوال الطقس يومياً تقريباً . وما من ريب أنه ورث ذلك من أصله الفلاّحي ، حيث للطقس أهميته المطلقة بالنسبة للإنتاج الزراعي . وقد تناقشت مع أحد المختصّين في أهميّة هذه التسجيلات اليومية التي تغطّي مدّة ربع قرن تقريباً ، باعتبارها وثيقة مناخيّة نادرة ، فهوّن من شأنها . ومع ذلك فإنني أحب أن أعتقد أنها لا تخلو من قيمة ، خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار مقارنتها بتسجيلات حاليّة ، حيث من الممكن اكتشاف تحوّلات مناخيّة . في ظل الاهتمام العالمي بالبيئة ومتغيّراتها .

لكن الذي حيّرني دائماً هو : لماذا ، على كل حال ، بذل ذلك الجهد الخارق في كتابة تلك المذكّرات سنة بعد سنة ، وربما إلى حين أو إلى قُبيل وفاته ، التي عرفنا أنها حصلت بتاريخ الثالث أو الرابع من شهر رمضان سنة ٩١٥ هـ. فضلاً عمّا ضاع منها قبل السنة ٨٨٥ هـ ، أي السنة التي قلنا أنها بداية ما وصلنا من المذكّرات ؟ أي أنه استمر في عمله الشّاق ما يناهز الثلث قرن ، إن لم يزِد .

نحن نعرف أن المؤرّخ الإسلامي السياسي التقليدي يكون غالباً جداً ممثّلاً للسُلطة ، يُزوّق صورتها ، ويُغطّي أخطاءها . إذن ، فحافزه إلى العمل يكمن في مقولة أن مالك السُلطة هو مالك التاريخ . وفي هذا تبرير وتسويغ كافٍ من وجهة نظره . ومثاله الأبرز علي بن محمد الشيباني ، المعروف بابن الأثير . أمّا المؤرخ الديني ، فهو يعمل على تمجيد مُعتقده . وهذا أيضاً حافز له ما يفوق الحصر من الأمثال ، من كُتّاب السِّيَر المذهبية ، من مثل (طبقات الشافعية) ، وهو عنوان لثلاثة كُتُب معروفة للسّبكي والأسنوي وابن هداية الله ، و(أمل الآمل) للحر العاملي. إلى الذين اعتنوا بتسجيل ووصف المعالم الدينيّة ، مثل النعيمي في كتابه الشهير (الدارس في تاريخ المدارس) . وهناك أنماط أُخرى ولا ريب ، لكنني لا أجد سبباً للتفصيل في هذا أكثر ممّا تقتضيه هذه الملاحظة .

أمّا كاتب المُذكّرات الشخصيّة فإن حافزه الرئيس للكتابة هو شعوره بالأهميّة . أنه شخص مُهمّ ، وأن سيرته وأعماله ستكون موضوع تساؤل أو مساءلة في يوم من الأيام . لذلك فهو يعمل على تسجيلها بنفسه ، وكأنه يعمل على أن يسبق غيره في هذا . ولذلك فإننا نجدها غالباً محشوّة بالمبرّرات والمسوّغات .

وفق هذه النمذجة ، فإن مذكرات ابن طوق عمل هجين ، أخذ من هذا بطرف ، وأخذ من ذاك بطرف . فهو يفتتح كل سنة بذكر كبار رجال السُّلطة ، من الخليفة والسلطان وكبار الأُمراء وكافل " الشام " وقُضاة المذاهب في " القاهرة " و " دمشق " . وهذا تقليد كان معمولاً به عند مؤرخي ذلك الأوان . الأمر الذي يمكن أن نفهم منه أنه كان يحاول أمراً يتشبّه فيه بالمؤرخين .ولكنه ما إن يغادر الفاتحة حتى يتحوّل عمله تحوّلاً جذرياً باتجاه المذكرات الشخصيّة . فالمادة تُقسم بحسب الأيام ، وليس السنوات والأشهر . عنوانها أبداً اليوم وتاريخه ثم وصفه بـ " المبارك " . وحتى عندما لا يجد ما يكتبه تحت عنوان يوم من الأيام ، فإنه يضع بإصرار عنوانه المعتاد ، دون أن يكون عنده ما يقوله عليه . حتى لو اقتضى الأمر أن يفعل ذلك أياماً متتاليات . وغالباً ما يترك ما بعده بياضاً ، وقد يقول : " لم يكن فيه ما يُكتب " . المهم أنه هو ومعلوماته وأعماله وشبكة علاقاته ووجهة نظره في الأحداث والرجال هي الحاضر الدائم . بل إنه يُبالغ في هذه الشخصانيّة إلى درجة أن يُسجّل مثلاً : " لبست القميص الجديد " و " قلعتُ الفروة " و " باض الحمام " .

من التمحّل أن نقول ، أن امرءاً على ما عرفناه من ثقافة متوسطة ومنبت بسيط وسذاجة ملحوظة ، كان يُدير في ذهنه خطّة واضحة ، وهو يخطّ يوميّاته يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة . ولكن هذه الملاحظة تأخذ عندنا معنى آخر إذ نلحظ أنه مبدع هذا الفن. فنحن لا نعرف أحداً قبله شغل نفسه بمثل هذا . ولكن علينا أن نلاحظ أيضاً أن سابقة ابن طوق لم تجد مَن يُثنّي عليها . وُلدت فريدة وبقيت فريدة . فكأنها سحابة صيف ، تجمّعت ثم تلاشت . الأمر الذي يؤشّر إلى السيطرة المفهوميّة المطلقة للنهج التقليدي السلطوي في الكتابة التاريخيّة . ومع ذلك فإ ننا نجد أ ن من المؤرخين المعاصرين له مَن اتخذ من مذكراته مصدراً للمعلومات . وهذا اعتراف عملي واضح بقيمة بعضها على الأقل . حتى من وجهة نظر أرباب ذلك القبيل من المؤرخين .

أعني بهذه الملاحظة شمس الدين محمد بن علي ابن طولون الصالحي ، الذي وُلد سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م ، وتوفي سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م . أي أنه كان في الخامسة والثلاثين سنة وفاة ابن طوق . وهو مؤرّخ دمشقي معروف . صبّ جهده على تاريخ مدينته .وترك مجموعة كبيرة من المصنّفات في هذا الباب ، لعلّ من أكثرها شُهرة وأوسعها تداولاً كتابه المنشور (مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان) الذي أرّخ ما وصلنا منه لأحداث وأعلام السنوات ٨٨٤ ـ ٩٢٦ هـ / ١٤٧٦ ـ ١٥١٩ م ، أي أنه يتقاطع مع مادة المذكّرات تقاطعاً كاملاً . وهو أنموذجنا في مراجعة نقديّة لاستفادة مؤرّخ سلطوي من مؤرخ إنساني .

من الغني عن البيان ، أن مادة (مفاكهة الخلان) الأولى تتعلّق بزمن كان فيه مصنفه أدنى من عمر الملاحظة والتسجيل . ولذلك فإنه لجأ إلى الأخذ عمّن سبقه إلى الاهتمام بما يهتم به في كتابه . وليس في هذا ما يُعاب أو يؤاخَذ عليه . ولكننا رأ ينا أن مصدريه الأساسين في هذا هما مذكّرات ابن طوق ، و (حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران) لشهاب الدين أحمد أحمد بن محمد الحمصي المتوفى سنة ٩٣٤ هـ / ١٥٢٧ م . ولقد لاحظنا أن ا قتباساته الطويلة والحرفيّة أحياناً عن ابن طوق هي أكثر بكثير ممّا أخذه عن الحمصي ، ومن وجهة نظرنا فإنها أكثر أهميّة . ولكنه في الوقت الذي أسند فيه ما أخذه عن هذا ، فإنه لم يُسند عن ابن طوق إلا

مرّة واحدة . فكأنه استنكف عن ذلك ، ورغب عن أن يُسجّل على نفسه أنه يأخذ عن ذلك الفلاّح القادم من قرية . ومن ذلك أنه تجاهل خبر وفاته فيما علّقه من أخبار السنة ٩١٥ هـ . علماً بأن أخبار هذه السنة قد وصلتنا في كتابه كاملة . مما ينفي احتمال سقوطها من المطبوعة . أمّا الحمصي فقد كان فقيهاً رسمياً وخطيباً في " الجامع الأموي " ، ولذلك فإنه لم يجد غضاضة في النقل عنه نقلاً مشفوعاً دائماً بالإسناد الصريح .

ليس هذا فقط ، بل إنه ، وهو المؤرّخ المسكون بثقافة سُلطويّة حادّة ، فرضت عليه تقديم رجال السلطة دائماً على نحو يليق بمقامها ، أخضع ما ا قتبسه عن المذكّرات إلى هذا الاعتبار. وهذه ملاحظة تستحق بحثاً مستقلاً . لكننا نُشير بسرعة إلى مثالين ، هما خبر مجئ الأمراء المماليك إلى بيت القاضي الشافعي شهاب الدين ابن الفرفور وأخذه عنوة إلى بيت الكافل قانصوه اليحياوي (التعليق / ١٢٩٥) . وقد تجاهل ابن طولون هذا الخبر تماماً . والثاني خبر إمساك الحاجب الكبير في " الشام " أحد كبار تجّار المدينة ، وضربه ضرباً مبرحاً ظلماً وعدواناً (نفسه / ١٣٢٨) ، وقد صاغه ابن طولون بطريقة تسوّغ للحاجب ما ارتكب من ظلم ، بالقول أنه " شمّ منه رائحة خمر ، فضربه ضرباً مبرحاً " (مفاكهة : ١ / ١٦٢) .

* * *

إذ نُذكّر بما قلناه قبل قليل ، من نفي أن يكون ابن طوق كانت في ذهنه خطّة واضحة ، وهو يخطّ مذكراته سنة بعد سنة ، نُضيف الآن أن الفضل في أفضل ما تقدّمه لنا تلك المذكّرات يرجع إلى ثقافته المتوسّطة وسذاجته . فمن شبه المؤكّد أنه لو كان من منبت مديني وثقافة عالية لما كان في وسعه أن ينجو من أ سار الاعتبارات السياسيّة والثقافيّة الطاغية . ولم يكن ليفكّر بأن يكتب بتلك البساطة والصدق والشمول .

وسواء كان الرجل كان يكتب عن وعي على قيمة ريادته أم لا . وسواء كان قادراً أم عاجزاً عن أن يضع لمذكّراته الفذلكة التي تسوّغها ، فإنها بنفسها ، وبصرف النظر عن التنظير المفقود ، تطرح عدّة قضايا .

الأولى : أنه ا بتكر منهجه الخاص . وقد قلنا فيه ما يتسع له المقام .
الثانية : أنه يطرح ضمناً مقولة أن الثقافة ليست بالضرورة ثقافة النخبة وحدها .
الثالثة : أن اتساع الثقافة لتشمل صنوف الإبداعات الشعبيّة في هذا الميدان أو ذاك ليس ينتقص من قيمة الثقافة النخبويّة . هاهنا مُتسع للجميع .